سلسلة مطبوعات دار العروبة: (٣)



تأليف

الأستاذ المودودي

(معرب عن الأردية)

دار العروبة للدعوة الإسلامية

بلدة راولپنڈی (پاکستان)

ثمن النسخة: روبية

سلسلة مطبوعات دار العروبة: رقم (٣)

الدين القيم

تاليف

الاستاذ المودودى

(معربٌ عن الاردية)

★

دار العروبة للدعوة الاسلامية

ثمن النسخة روبية

الطبعة الاولى: ۲۰۰۰ نسخة

۱۳۹۱ھ
الف ۱۹۷۱
ع

عني بطبعه مسعود الندوى
في مطبعة كپور آرٹ، ببلدة لاهور

وعنيت بنشره دار العروبة للدعوة الاسلامية
ببلدة راولپنڈی (پاکستان)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الدين القيم

ان الدعوى التى يتحدّى بها القرآن المجتمع البشرى و يدعو بها الناس كافةً الى منهاجه المعروف، هى التى بيّنها بقوله، عز من قائل:

انّ الدين عند الله الاسلام [آل عمران: ١٩]

و قد اخترت هذه الآية الحكيمة موضوعاً لكلامى و عنواناً للبحث الذى انا بصدده الآن. و لولا ضيق نطاق الوقت لوفيت الموضوع حقّه من التحقيق، الا اننى اريد الآن ان الم بالموضوع الماماً متوخيا الايجاز، محيطاً بجميع اطرافه و نواحيه حسب ما يسمح به الوقت و المقام. فليكن كلامى اوّلاً فى ايضاح معنى هذه الآية، و لو بطريق الايماء، حتى ينكشف الغطاء عن الدعوى التى ادّعاها القرآن فى هذه الآية. ثم نتناول بالبحث ثانياً السؤال الناشئ بمجرد سماع هذه الدعوى: «هل هى جديرة بتسليمها و الايمان بها و الاذعان لها؟ و فى الختام اريد بيان المقتضيات و الواجبات التى يستدعيها قبول هذه الدعوي و يقتضيها الإيمان بها والاستسلام لها.

فالذى يُفهَم عامةً من معنى هذه الآية «انّ الدين الصحيح عندالله الاسلام من غير شك». اما الاسلام فلا يعرفون منه غير أنه ديانة ظهرت فى بلادالعرب منذ اربعة عشر قرنا و قام بتأسيسها محمّد بن عبدالله صلى الله عليه و سلّم. و انما قلت «قام بتاسيسها» تعمّداً لأن كثيراً من المسلمين بل اهل العلم منهم — دع عنك ذكر غير المسلمين الذين تورّطوا فى هذا الخطأ من قصد و غير قصد — يسمّون محمّداً صلى الله عليه و سلّم تسميةَ البانى (Founder) لدين الله و ينسبون تاسيس الدين المبين الى شخصه الكريم، كأنى بهم يزعمون انّ الاسلام لم يكن بدؤه الا برسالته صلى الله عليه و سلم و أنه هو الذى قام بتاسيسه و تشييد بنيانه. و من ثم ترى ان باحثاً من غير المسلمين حينما تصل به الدراسة الى هذه الآية الكريمة لايسبر غورها و انما يمرّ بها مروراً، ظنّاً منه ان القرآن قد ادّعى بحقانية الديانة التى جاء بها، شان الديانات الاخرى حيث تدّعى كل واحدة منها بكونها على حق و ان ما دونها هو الباطل. و اما المسلم فلا يشعر بحاجة و لا يُحسّ بدافع فى نفسه الى تدبرها و اعمال الرويّة فيها، حينما تسنىٰ له تلاوة تلك الآية الكريمة، لأنه لم يزل مومنا بالدين الذى نطقت الآية بكونه دين الحق. و ان احس من

نفسه ميلاً الى تدبّر هذه الآية و انعام النظر فى مغزاها فلا يعدو ان يُقبل على المقارنة بين الاسلام والديانات الأخرى كالنصرانية والوثنية والبرهمية والبودية و يُظهر للناس ان الاسلام هو الدين الحق من بينها جميعاً. و لكن الحقيقة ان هذه الآية الحكيمة من آى القرآن التى يجب على الطالب المستبصر ان يتوقف بها مليّاً و يتحرّى وجوه المعانى الكامنة فيها أكثر مما تدبّرها الباحثون للآن و امعنوا فيها.

و جدير بنا ان نُحدِّد اولاً و قبل كل شيء معنى كلمتى «الدين» و «الاسلام» الواردتين فى هذه الآية، ليتسهّل لنا استكناه سر دعوى القرآن و استجلاء وجه الحقيقة منها.

الدين

فلنبدأ بكلمة «الدين» منهما، فنرى انها تستعمل فى عدة معان، حسب ما نصّت عليه معاجم اللغة. فمن معانيها (i) الملك و السلطان و الحكم و الغلبة (ii) و الطاعة و الذل و العبودية (iii) و الجزاء و المكافأة و الحساب (iv) و الطريقة و المنهج و الظاهر ان لفظة «الدين» ههنا فى الآية قد وردت فى هذا المعنى الرابع الاخير، كما لا يخفى على المتأمل. فالمراد بالدين ذلك المنهاج للحياة او الطراز المخصوص للتفكير والعمل الذى يُتّبع

و يحتذى على مثاله؛ لكنه مما ينبغى ان لا يغيب عن ذهنك ايها القارئ، ان القرآن ما جاء بهذه الكلمة نكرةً، و انما جاء بها محلاّة بلام التعريف — الدين —. فمعناه ان القرآن لا يقول ان الاسلام منهاج من مناهج الحياة و التفكير، بل الذى يقول به و يدّعيه ان الاسلام هو المنهاج الوحيدُ الحقيقى الصحيح للحياة البشرية والطراز المخصوصُ للتفكير و العمل فى هذه الحياة الدنيا. و كذلك لا يغيبنّ عن بالك ان القرآن لا يستعمل هذه الكلمة — الدين — فى معنىً ضيقٍ محدودٍ، بل يطلقها على معنى شامل جامع و اوسع بكثير مما يتصوّره الناس عامةً. فالمراد «بمنهاج الحياة» منهاج الحياة باجمعها، لا منهاج فرعٍ من فروعها او ناحيةٍ من نواحيها. و كذلك ليس المقصود انه منهاج لحياة كل فرد فرد من الكتلة البشرية على حدة فحسب، بل هو منهاج كافل للمجتمع البشرى ايضاً باسره. و كذلك ليس معناه انه منهاج لحياة قطر خاص او أمة بعينها او عصر معيّن، بل المراد انه منهاج عملى عامٌ جامع محيط بجميع نواحى الحياة البشرية، الفردية منها و الجماعية، و لا يختص بقطر دون قطر او زمن دون زمن او أمة دون أمة. فليس من معنى دعوى القرآن

ان مجموعةً صحيحة من العبادات والايمان بالمغيبات و الحياة بعدالموت هى التى تُسمّى «بالاسلام»؛ و كذلك ليس معناه ان صورة التفكير و العمل الوحيدة الصادقة «للمتدّينين»[1] من البشر ––– قلنا «المتدينين» حسب الاستعمال الشائع اليوم فى مصطلح اهل الغرب الذين يحسبون ان الدين انما هو عبارة عن مجموعة من الشعائر المعينة و الطقوس المعهودة و لا علاقة له بالحياة الاجتماعية اصلاً ––– انما هى تتجلّى فى مرآةالاسلام؛ و ايضا لا يريد القرآن «بدعواه» ان منهاج الحياة الصحيح للعرب وحدهم او لاجيال متعاقبة بعينها او لأناسٍ عاشوا و ازدهروا الى زمن محدود او عصر مخصوص كالانقلاب الصناعى (Industrial Revolution) مثلاً هو الذى يُعبّر عنه «بالاسلام». اللهم، لا هذا و لا ذاك، بل الذى يُصرّحُ به القرآن فى هذهالآية و يعلن دعواه بذلك، هو ان المنهاج الوحيد الصحيح المرضىُّ عندالله فى هذهالحياة الدنيا، الكافل للحياة البشرية جمعاء، المحيط بها فى كل عصر و فى كل

---

١ وردت فى الأصل كلمة «مذهبى» و هو تعبير صادق صحيح للمفهوم الضيق المحدود الذى حصروا الدين فى دائرته و اقاموا حولها سوراً منيعاً من الخرافات والتقاليد الكاذبة الواهية.

زمن، هو ذلك المنهاج الفطري الذى يعبّر عنه «بالاسلام».
و ما كدت اثني العجب، حينما بلغني ان بعض المتجددين المتنوّرين من ابناء قطر معروف بين آسيا و اوربا، قد فسّر القرآن تفسيراً غريباً، جاء فيه ان الاسلام[1] انما هو علاقة فرديةٌ او ذاتيةٌ بين العبد و ربّه، و لا صلة له بنظم العمران و المملكة البتة. و لعمري ان هذا تاويل مُدهش غريب و اغرب ما فيه الادّعاء بكونه مستنبطاً من القرآن نفسه. و لكن الذى اراه و اجزم به بعد ما عكفت على دراسة الكتاب العزيز عكوفاً و سبرت غور معانيه و مبانيه زمناً غير قليل و وقفت على مثالثه و مثانيه وقفة المتأمل المتبصر ان القرآن لم يستعمل كلمة «الدين» فى معنى ضيق محدود رغم ما يريده المفسرون المتجددون و تريد اهواؤهم، و انما يريد القرآن «بالدين» منهاجَ التفكير

---

١ قاله احد مندوبي تركيا الجديدة الذين زاروا الهند منذ بضعة اعوام خلال الحرب الماضية، قال في تصريح صحفى عام ما معناه: "اننا فى تركيا قد فرّقنا بين الدين و نظم الحكم والاجتماع تفريقا تاما، و انه لا علاقة للدين بنظم العمران والمملكة البتة." و قال ايضاً. "اننا فسرنا القرآن وفق هذه الفكرة و نشرناها فى بلادنا" الى آخر ما جاء فى تصريحه من القول السخيف والكلام المريض. و كان من حسن المصادفة ان الاستاذ المودودى، صاحب هذه المحاضرة، القاها فى نفس تلك الايام امام جمع حافل بالمثقفين الجدد و خريجى الجامعات العصرية. و من هناك هذه الاشارة الى كلام المندوب التركى الصحفى . . . . . . "المعرب"

والعملِ الشاملَ للحياة البشرية جمعاء، لا فرق فى ذلك بين زمن و زمن و قطر دون قطر. اقول به، و انى على بيّنة من الامر و لا اخاف فى ذلك ردّ رادٍ و لا جحود مُتعنّت.

الاسلام

هذا، و لنأخذ الآن لفظة «الاسلام» و لنتأمل فى معناها و مغزاها. فالاسلام لغةً هو الخضوع والاستسلام والطاعة والانقياد لأمر الآمر و نهيه بلا اعتراض. لكن الكلمة ما وردت فى التنزيل «نكرةً»، و انما جاءت معرفة باللام، كأنى بها اخرجت مُخرَجَ مُصطلح خاص. فالاسلام بهذا المصطلح القرآنى هو الخضوعُ لله والانقيادُ لطاعته و انسلاخ العبد من حريته الذاتية بازائه تعالىٰ شانه و اسلام وجهه لله. و ليس معنى هذا الخضوع والاستسلام والطاعة ان يخضع المرء لقوانين الطبيعة (Laws of Nature) كما توهم بعض الناس؛ و كذلك ليس من معناه ان يطيع العبد تصوّرَ (Conception) مرضاة الله و مشيئته الذى استخرجه بنفسه بمساعدة من مُخيّلته او مشاهداته و تجاربه، كما زعمت فئة اُخرى، بل الحق ان معناه ان يَقبلَ الانسان المنهاجَ الفكرى و العملى الذى انزله الله لهداية البشر و ارسل به رسلا من عنده،

يقبل ذلك المنهاج القويم و يتبعه و يخضع له منقاداً مطيعاً منسلخاً من حريته الفكرية والعملية — او بلفظة اصح «القوضى الفكرية والعملية». و هذا المنهاج هو الذى يعبر عنه القرآن «بالاسلام». و ليس ذلك فى نفس الامر بدين مستحدث ظهر فى بلاد العرب منذ اربعة عشر قرناً و قام بتاسيسه النبي العربي محمد بن عبدالله صلى الله عليه و سلم، بل الأمر ان الله قد اعلم البشر بذلك يوم ظهروا على هذه الكرة الارضية لاول مرة و علّمهم ان «الاسلام» هو المنهاج الصحيح الوحيد للنوع البشرى فى هذه الحياة الدنيا. والذين بعثوا من بعده من الانبياء والرسل على فترات فى مختلف العصور والازمنة و فى مختلف البقاع والامكنة و أُرسلوا لهداية البشر مبشرين و منذرين، ما كانت دعوتهم جميعاً الا الى هذا الاسلام الذى بُعث به اخيراً داعياً لكافة البشر خاتمهم و افضلهم سيدنا و مولانا النبي العربى الامى محمد بن عبدالله صلى الله عليه و سلم. و لا يقدح فى ذلك ما فعله أتباع سيدنا موسى عليه السلام من بعده من تحريف الكلم عن مواضعه و مزج الحق بالباطل واختلاق نظام مستحدث مختلط بشتى الاهواء والآراء و تسميته باليهودية؛ و كذلك لا يضره ما ابتدعته النصارى

من بعد نبيّهم و ما استحدثوه من نظام دينى جديد و نسبوه الى السيد المسيح، صلوات الله عليه و سلامه، كذبا و زوراً؛ و ايضاً لا يضره فى شيء ما فعلته امم الهند و الصين و بلاد فارس و غيرها من انحاء المعمورة من مخالفتهم لما جاءت به الرسل والهداة فى تلك الاقطار و اجترائهم على ابتداع الديانات و استحداث نظم للحياة و خلط الحق بالباطل حسب ما اقتضته شهواتهم و اهواؤهم. نعم! ليس هذا و لا ذاك بضائر ما قلت، لأن الدين الذى جاء به موسى و عيسىٰ و بعث به غيرهما من الانبياء والرسل لدعوة البشر اليه من الذين قصّهم الله علينا او لم يقصصهم لم يكن الا «الاسلام» دينَ الله الخالص، لا غير. فتتّضح بهذا البيان دعوى القرآن جليّةً ناصعةً، و هى:

«ان منهاج الحياة الصحيحَ الوحيدَ المرضيَّ عند الله للجنس البشرى ان يُسلم وجهه لله و يخلص دينه له تعالى شانه و يتّبع ذلك الطريق الفكرى و العملى الذى هدى الله البشر اليه بواسطة انبيائه و رسله.»

هذه هى دعوى القرآن. فلننظر هل هى جديرة بالقبول و الايمان بها؟ اما الحجج و البيناتُ التى استدل بها القرآنِ على دعواه هذه فلا بدَّلنا من تدبّرها

والتأمل فيها. و لكن ما لنا لا نركض جواد الفكر اولا و نتحرى وجوه الصواب من هذه الدعوى و نتفكر فى انه هل لنا من مندوحة عن قبول هذه الدعوى او ملجأ من اليقين والطمانينة نلجأ اليه اذا رفضناها؟

و من البيّن الذى لا خفاء فيه ان الانسان لا بد له فى العالم من منهاج للحياة يختاره من بين المناهج و يتبعه فانه ليس كالانهار يتعين مجراها بوهاد الارض و نجادها بنفسه؛ و لا شانه كشان الاشجار تنمو و تكبر حسبَ السنن الطبيعى والنواميس الطبيعية؛ و كذلك ليس الانسان بحيوان اعجم من الانعام والدواب التى تسير بسائق جبلّتها و تكتفى بالوازع النفسى الكامن فيها لهدايتها و ارشادها الى منابع الرزق و مرافق الحياة؛ فانه مع كونه خاضعاً لقوانين الطبيعة فى قسم كبير من حياته، لا يجد طريقاً معبداً و منهاجاً معيناً فى نواح اخرى من حياته المتشعبة، يمكنه ان يسير و يظلّ دائباً عليه كالانعام من غير ارادة منه و لا قصد. و انما يضطر البشر الى ان يختار بنفسه منهاجاً من بين المناهج الممكنة. فانه يحتاج الى منهاج للتفكير يحلّ به معضلات الكون والحياة البشرية التى تعرضها الفطرة على قريحته المفكرة و لكن لا تزوّدها بحلّ لها ميسور يطمئن

اليه الخاطر؛ يحتاج الى منهاج للعلم يُرتب به المعلومات المبعثرة التى توصلها الفطرة. الى ذهنه بواسطة حواسه و لكن لا تاتى بها مُرتّبةً منتظمةً فى حال من الاحوال؛ و كذلك الانسان فى حاجة ماسة الى منهاج لشؤونه الشخصية يقضى به شيأً كثيراً من مطالبه الذاتية التى تقتضيها الفطرة و تستدعيها و لكن لا تجهّزه بشيء من المعدات والوسائل و لا تساعده بطريق لقضائها واضح محدود. و زد على ذلك انه يحتاج فى حياته العائلية و حفظ الاواصر بين ذوى القربى و الشؤون الاقتصادية و ادارة المملكة والعلاقات الدولية، و جملة القول انه يحتاج فى كل من هذه و فى غيرها من نواحى الحياة و مناحيها الى منهاج يتبعه و يسير عليه، لا بصفته فرداً من افراد الجنس البشرى فحسب، بل يسلكه بصفته الجماعية والقومية والنوعية ايضاً، حتى يبلغ مرتقى الغايات السامية التى يتطلّبها الانسان و يقتضيها بوازع من فطرته التى فطر عليها، لكن الفطرة ما اوضحت له معالمها ايضاحاً و لا حدّدت طريقاً للوصول اليها. و مما ينبغى ان لا يغيب عن بالك ان شعب الحياة هذه التى لا مندوحة فيها للانسان عن اختيار منهاج للعمل، ليست كل واحدة منها مستقلة بنفسها، مستغنياً بعضها عن بعض، حتى يمكن الانسان

ان يختار لكل واحدة واحدة منها سبلاً متفرقة يختلف بعضها عن بعض فى وجهتها و راحلتها و طريق المسير و خطته و يتشعب بعضها عن بعض فى مطالب السفر و مقتضياته و يعارض بعضها بعضاً فى الغاية التى يقصدها السالك والمطمح الذى يشخص اليه السائر ببصره. والذى اوتى نصيباً من الفهم و توقد الخاطر و أعطى الحياة البشرية والمسائل المنوطة بها حظاً من عنايته و تفكيره، اطمأنت نفسه و علم علم اليقين بأن الحياة الانسانية باسرها مجموع يرتبط كل جزء منه بآخر ارتباطاً وثيقاً و يلصق كل ناحية منها بأخرى لصوقا تاماً، لا ينفصل و لا ينفصم، يؤثر بعضه فى بعض و يتأثر بعضه من بعض، يجرى فى عروقها جميعاً دم واحد و تسرى فى انفاسها روح واحدة، فيتألف من هذا و ذاك و يتكون من تفاعلها فى ما بينها الشىء الذى نسميه بالحياة البشرية. فالحق ان الانسان لا يحتاج الى مقاصد و غايات مختلفة لفروع حياته المتشعبة العديدة، بل الذى يفتقر اليه فى نفس الأمر غايةٌ واحدةٌ تضم بين جنبيها سائر الغايات، الجليلة منها والصغيرة متوافقة متلائمةً بحيث يظفر بها جميعاً بجهاده فى سبيل الحصول على تلك الغاية؛ و كذلك لا يحتاج الى سبل متفرقة، و انما يحتاج الى سبيل واحدة يسير فى

سلوكه اياها، بحياته، بجميع فروعها و شعبها متوافقةً متناسبةً الى الغاية العليا والهدف الاسمى؛ و ايضاً لا يحتاج الى نظم للتفكير والعلم والادب والفن (Art) والتعليم والديانة والاخلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة والدستور وغيرها، لا يحتاج الى نُظُم على حدة لكل واحدٍ واحدٍ منها، بل الذى يحتاج اليه و يتطلبه هو النظام الجامع الشامل الذى يبسط جناح رحمته عليها جميعاً و كل منها يجد فى كنفه مستقراً و مستودعاً، ملائماً لجبلته و مزاجه، والذى يشتمل على اصول و مبادئ متناسبةٍ متجانسةٍ موافقة لطبيعة كل واحد منها، والذى يضمن للانسان و كل كتلة من الجنس البشرى بل للانسانية قاطبة من حيث مجموعها ان تنال بغيتها المنشودة و تبلغ اقصى غاياتها اذا اتبعت ذلك النظام و جعلته دستوراً لها و قانوناً.

و لقد خلا عصر الجاهلية المظلم الذى كان الناس يحسبون فيه ان الحياة البشرية يمكن تجزئتها الى شعب و فروع على حدة مستقلة بنفسها. و اذا كان لا يزال فينا بقية ممن يرون هذا الرأى الفاسد و يتفوهون بمثل هذه الاحاديث الواهية فلا يخلو امرهم من شيئين: اما ان يكونوا اغراراً ما انفكوا يتنفسون فى جو الآراء والاوهام العتيقة التى أكل عليها

الدهر و شرب، فلا كلام لنا فيهم، و انما امرهم الى الله، عسى ان يُوقظهم من رقدتهم و يهديهم الى طريق الحق؛ و اما ان يكونوا دهاة يريدون ان يلبسوا الحق بالباطل و هم يعرفون الحقيقة، و انما يظهرون ما لا تؤمن به قلوبهم، لانهم فى حاجة الى ان يوهموا الذين يعارضون مبادئ دينهم الباطل الذى يريدون تنفيذه فى مجتمع من المجتمعات البشرية و يجعلوهم يوقنون بان هذا "الدين" الجديد لا يَمسُّ فى قليل لا كثير شعب حياتهم التى يعز عليهم ان يجور عليها قانون او يتدخل فيها احد بشىء و ستبقى عزيزة الجانب محافظة على خصائصها و مقوماتها. والحال ان هذه المحافظة و عدم التدخل الذى يتشدقون به ممتنع عقلاً، متعذر وفق السنن الفطرية و غير ممكن فى دائرة العمل والتحقق الفعلى. والذين يتفوهون بمثل هذا الكلام المريض، هم انفسهم يعرفون فى الغالب ان ذلك محال، لا يمكن تحققه. و من ذا الذى يخفى عليه اليوم ان الدين الغالب يُسيطر على جميع شعب الحياة و نواحيها و يفرغها فى قالبه افراغاً، و يصبغها بصبغة روحه و طبيعته. و مثله فى ذلك كمثل معدن الملح، كل ما يصل اليه و يدخل فى كنفه يتحوّلُ ملحاً

هذا، و قد عرفت بطلان القول بتجزئة الحياة البشرية الى شعب على حدة مستقلة بنفسها، فاعلم أن القول بتجزئتها الى دوائر اقليمية و اخرى نسلية امعن منه فى الضلال و اعرق منه فى فساد الرأى. و لا ننكر ان الانسان يعمر بلدانا مختلفة مبثوثة فى انحاء المعمورة المتشعبة، قد فرّقت بينها الانهار والجبال والبحار والغابات و حدّتها من جوانبها ثغورٌ مصطنعة اختلقها الانسان. و كذلك مما لامراء فيه ان الجنس البشرى يشتمل على شعوب و أمم متفرقة و سلالات و عشائر متعددة تطبعت بطوابع مختلفة من خصائص الانسانية و مقوماتها و نشأت فيهم اخلاق و خلال من الانسانية مختلفة لاسباب تاريخية و نفسية (Psychological) وغيرها من العوامل؛ و لكن الذى يقول محتجّاً بهذا الاختلاف و مستدلاً به انه لابد لكل سلالة و لكل أمة و لكل كتلة جغرافية من «دين» أى نظام الحياة على حدة، فلاريب انه يتخرص و يقول ما لا يرضاه المنطق الصحيح والعقل السليم. والظاهر من أمرهم انهم انخدعوا بما وقعت عينهم عليه من مظاهر الاختلاف و امارات التباين والتباعد و لم يتنبّهوا لما فى مظاهر الاختلاف هذه من اساس الوحدة الانسانية و ما فى اعراض هذه الكثرة من جوهر الوحدة النقى. و ان كانت هذه الاختلافات المزعومة

بمنزلة من الخطورة والاهمية بحيث تقتضى ان يكون لكل امة او لكل قطر دينٌ على حدة، فلعمر الحق انك اذا دققت النظر فى ما تشاهده من مظاهر التباين والتباعد بين الذكر والانثى و بين الانسي والانسى و بين وَلدَين من ام واحدة و سبرت غورها و امعنت فى تحليلها تحليلا علميا، اذا فعلتَ هذا لوجدت — و عسى ان لا اكون مُغالياً فى هذا القول — هذه الاختلافات والفروقَ اثقل وزنا و ازيد عدداً من تلك المظاهر المتباينة والاعراض المتباعدة. فما الذى يمنعك من القول بأنه لابد لكل فرد من افراد الجنس البشرى من نظام للحياة على حدة؛ و لكنك تقول ان فى غضون تلك الاختلافات والفوارق الفردية والصنفية (Sexual) والعائلية عنصرا من الوحدة ثابتا يحتمل تصور الامة والوطن او السلالة و يُعدّ من الممكن ان ينهض على قواعد هذا التصوّر (Conception) بناء نظام الحياة، لامة او لاغلبية ساحقة من سكان قطر بعينه. فما الذى اعمى بصرك من ان تستجلى من بين تلك الفوارق القومية والنسبية والوطنية عنصر وحدة اساسية عظيمة يقوم على بنائها تصورُ الانسانية و يعد بموجبه ممكنا ان يتكون دينٌ او نظامٌ للحياة واحد للجنس البشرى قاطبة؟ او لا ترى ان القوانين الطبيعية التى يعيش الانسان حسب

مقتضاها في هذه الحياة الدنيا واحدة متجانسة بالرغم من جميع الفوارق الجغرافية والنسلية والقومية؟ وكذلك الهيئة الجسدية التي خلق عليها الانسان والخصائص التي تفرق بين الانسان والحيوانات الأخرى وتجعله نوعاً مستقلاً بذاته، وكذلك الدواعي الفطرية والنوازع الجبلّية التي أودعها الانسان والقوى التي نعبّر عن مجموعها بالنفس البشرية، فكل هذه متجانسة متساوية بين جميع اصناف البشر، رجالهم ونسائهم واسودهم واحمرهم وشرقيهم وغربيهم. وقس عليها سائر العوامل الطبيعية والنفسية والتاريخية والمدنية والاقتصادية التي تؤثر في الحياة البشرية وتعمل فيها عملها، فانها ايضاً بأسرها متساوية متماثلة بين جميع طبقات البشر في جوهرها واساسها.

فان كان كل ذلك حقاً وصدقاً —— ومن ذا الذي يسعه ان يجحده او يجادل فيه —— فالمبادىء التي توضع لسعادة الانسان بصفته النوعية ينبغي ان تكون عالمية شاملة لكافة البشر. وليس هناك ما يقتضي انحصارها في دوائر القومية او الوطنية او النسل. ونعم يجوز للامم والسلالات، بل يجب عليها ان تظهر خصائصها وتنظم شؤون حياتها الفرعية بطرق شتى تحت هذه المبادئ والقواعد العالمية.

لكن الدين القيم او منهاج الحياة الذى يتطلّبه الانسان بصفته النوعية الانسانية لابد أن يكون واحداً، مهما تقلّبت الاحوال والظروف. فانه مما ياباه الذوق و لايقبله العقل ان الشيء الذّي يكون حقاً مستبيناً لأمة من الامم، يتحول باطلاً لامة اخرى. والذي يكون باطلاً و فساداً لشعب من الشعوب يعود صلاحاً و حقا لشعب آخر.

و من سخفات هذا العصر المتمدين العريقة فى الضلال القول بتجزئة الحياة البشرية الى العصور والازمنة، و قد لبسوها ثوباً مزخرفاً من العلم والتحقيق و عرضوها على الانظار والمسامع كأنها حقائق ثابتة فى موضعها، والحال ان بينها و بين الحقيقة مابين الارض والسماء. و مرادهم بذلك ان نظام الحياة الذى يكون حقاً و ينبوع سعادة و صلاح للبشر فى عصر، قد ينقلب باطلاً و مبعث خيبة و فشل في عصر آخر. و حجتهم فى ذلك ان مسائل الحياة و شؤونها تتبدّل بتبدُّل العصور والازمان، و كونُ نظم الحياة حقاً او باطلاً انما يتوقف برُمّته على هاتيك المسائل والشؤون و وضعيتها الخاصة. و يقولون كل هذا و يتشدقون به عن الحياة البشرية نفسها التى يدّعون عنها أنها تسير حسب نواميس النشوء والارتقاء، والتى يبحثون فى تاريخها عسى ان يظفروا بالقوانين المؤثرة العاملة

فيها، والتي يدققون في تجاربها الماضية ليستخرجوا منها درساً للحال وعظةً للمستقبل، نعم! يقولون كل ذلك عن الحياة البشرية بعينها التي يثبتون و يقررون لها شيأ يسمونه «الفطرة الانسانية».

و لسائل ان يسأل: هل عندكم من مقياس تقيسون به الحركة التاريخية للنوع البشري، المتسلسلة من بدء هذه الكرة الارضية و تقيمون به حدوداً مستبينة فاصلة بين زمن و زمن و عصر و عصر و عهد و عهد؟ و هل في وسع احد ان يضع انملته على خط من خطوط تلك الحدود مثلاً و يدّعي ان ما وراء هذا الخط من مسائل الحياة قد تحولت تحولاً تاماً بعد ما عبرته و جازته و ان الاحوال والظروف التي وُجدت في الجانب الآخر من هذا الخط، لم يبق لها عين و لا أثر في هذا الجانب؟ كلا! و لو كان التاريخ البشري في نفس الامر منقسماً الى مثل هذه الاجزاء الزمنية المنفصل بعضها عن بعض كما تزعمون و تدّعون، لكان معناه ان جزءاً من الزمان الذي قد خلا، صار عبثاً و حديثاً منسياً للجزء الزمني الذي يأتي بعده وضاع بمضيه كل ما أدّاه الانسان من الاعمال و ما ادّخره من الجهود في ذلك الجزء من الزمان، والتجارب التي حصل عليها البشر في ذلك الزمان مدبر، لم يبق فيها درس و لا عظة للزمن اللاحق، لأن الظروف والاحوال التي اختبر فيها الانسان بعض الاصول والمناهج و جرّب

السعي المتواصل وراء بعض قيم الحياة (Values of life) قد فنيت فناءً و اصبحت كأن لم تكن شيأً مذكوراً. و اذا كان الامر كذلك، حسب ما تزعم، فلماذا حديث النشوء والارتقاء هذا؟ و لأى شيءٍ هذا البحث والتدقيق فى قوانين الحياة؟ و علامَ هذا الاستنباط والاستخراج من تجارب التحقيق العتيقة؟ لأن الكلام فى النشوء و الارتقـاء يستلزم بطبيعته ان هنـاك شيأً يكون محلاً لكل هذه التحوّلات و يتحرك و يسير ذلك الشيء متتابعا متواصلاً محافظـاً على نفسه فى غضون تلك التطورات؛ و حينما تبحث فى قوانين الحياة و تسبر غورها فكأنى بك تعترف بأن فى هذه الظروف و الاحوال المتبدلة و فى هذه المظاهر العابرة السائرة و فى هذه الصور المنقلبة المتحولة كل حين و آن حقيقةً حيويةً ثابتةً، لها فطرتهـا الذاتية و قوانينهـا المختصة بها؛ و كذلك استخراجك الدروس و العظات من تجارب التـاريخ الماضية يستوجب القول بأن السالك الذى ما زال يجوب المنـازل المترامية و يقطع المراحل الشاسعة من طرق التاريخ المتطاولة بعناقها الى ما مضى من القرون والاجيال، له شخصية يمتاز بهـا و طبيعة يستقل بهـا، حتى يصح القول فيه بأنه يعمل على منهـاج مخصوص فى ظروف مخصوصة و يقبل اشياء فى وقت و يرفض تلك الاشياء بعينهـا فى وقت آخر و يقتضي اشياء اخرى غيرهـا. و مـا هذه الحقيقة المحسوسة

و ما هذا الشيء الثابت الذي يكون موضوعاً و معمولاً للتطورات
و ما هذا السالك المستقل فى مسالك التاريخ الواسعة، الا الشيء الذي لعلكم تسمونه «بالانسانية». و لكن، ما بالكم، اذا افضتم فى حديث منازل الطريق والاحوال العارضة بها
و المسائل التي تنشأ منها تشعّبت بكم الافكار و ذهبت بكم كلّ مذهب و يبلغ بكم الامر ان تذهلوا عن السالك نفسه و تجعلوه نسيا منسياً؟ أحقٌّ ما يقولون: ان تبدُّل المنازل و احوالها و مسائلها يستوجب تبدُّلَ السالك و حقيقته: والذى نشاهده نحن انه لا يزال على هيئته التي كان عليها يوم خلق الله البشر، لم يتغير منها شيء؛ و ان عناصره التركيبية اليوم بعينها التي كانت منذ آلاف من السنين؛ و ان طبيعته و المقتضيات التي تستدعيها فطرتهُ و الاوصاف والخصائص التي يمتاز بها عن غيره و ميوله و نزعاته كلها على ما كانت عليه من قبل فى عصر من عصور التاريخ.
و كذلك قواه و استعداده و ضعفهُ و عدم كفاءته و قواعد عمله و انفعاله و تأثيره و تأثره و القوى الحاكمة عليه العاملة فيه و محيطهُ الكونى، هذه كلها جميعا على حالها التي كانت عليها من قبل، لم تتبدل شيأ و لم يحدث فيها ادنى تغيير منذ بدء الكون الى هذا العصر الذي نعيش فيه. فلا يقدر احد ان يجرى على القول بأن الانسانية نفسها او الامور التي لها ارتباط وثيق بها

كانت تتبدل بتبدل الاحوال و المسائل الناشئة من ذالك فى مجرى التاريخ الطويل.

فاذا كانت الحقيقة على ما ثبت فى ما تقدم فما رأيك فى قول من يدّعى ان الشيء الذى كان بالامس ترياقا للانسان قد تحول اليوم سماً ناقعا، والذى كان بالامس حقاً اصبح اليوم باطلاً، والذى كانت له قيمته و مكانته بالامس قد استحال اليوم لا يقام له وزنٌ؛ او تراه فى شيء من الحق والعدل؟ والحقيقة ان النوع البشرى، افراداً و جماعات، قد اخطأ خلال مجرى التاريخ البشرى الطويل فى فهم الانسانية نفسها والامور الاساسية المتعلقة المرتبطة بها، و افرط فى الاعتراف ببعض الحقائق و فرّط فى بعض حيث لم تدرك سرّها و مغزاها. فكانت النتيجة ان نظم الحياة التى اختارها بين حين و آخر جاءت عادلة عن الطريق القويم، متنكّبة محجّة العدل والصواب فرفضتها الانسانية الكبرى بعد ما اختبرتها و وجدتها نائية عن الجادة المستقيمة ليحلّ محلّها نظام أخرى مثلها.

فاستنبطوا من مشاهدة ما جربت تلك النظم المتبدلة انه لابد للانسانية فى كل عصر من نظام للحياة على حدة، يتولد من الاحوال والمسائل الكائنة فى ذلك العصر نفسه و لا يبذل جهده الا فى حلّها. والحاصل انه ان كان يمكن استخراج نتيجة

من تلك المآجريات بطريق اصح و اقوم فهى أنّ فى اختبار مثل تلك النظم العصرية المتبدلة بتبدل العصور والازمنة —— وان شئت قلت: حشرات الارض المتولدة المتجددة بتجدد مختلف فصول السنة —— و امتحانها مرةً بعد مرة و تجربة التالية بعد انقطاع الأمل من السابقة لضياعاً لجهود الانسانية الكبرى و اوقاتها الثمينة و قطعاً لسبيلها و صداً لها عن نشوئها و ارتقائها و عن تقدمها الى كمالها المنشود بالقاء العراقيل فى طريقها. والذى تتطلبه الانسانية و تحتاج اليه اشدّ الاحتياج، هو منهاج او نظام للحياة يُبنى على مبادىء و قواعد عالمية ثابتة دائمة، على علم بحقيقتها و معرفة تامة لجميع الحقائق المتصلة بها؛ بحيث يتمكن به الانسان من اقتحام غمرات الحال والمستقبل والخوض فى شئونها المتحولة المتبدلة والخروج منها سالماً ظاهراً و يقدر على حل جميع المشاكل المتولدة من تلك الشئون والاحوال و فك معضلاتها، و فوق ذلك ان تستطيع الانسانية بمساعدة المنهاج المرضى ان تتقدم و تسمو نحو غايتها العليا آمنةً مطمئنةً جادةً فى سيرها غير متعثرة و لا متلعثمة.

هذه هى وضعيّة «الدين» او المنهاج او نظام الحياة الذى تتطلبه الانسانية و تحتاج اليه. فلننظر هل فى وسع الانسان و مكنته ان يضع ديناً كهذا لنفسه و ينجح فى مهمته اذا اراد ذلك.

ستقلاً برأيه. و لا اراني في حاجة الى ان اسألكم الآن:
هل نجح الانسان قبل هذا اليوم في وضع مثل ذلك «الدين»
ام لا؟، لأن ذلك لم يكن قط و ان يتحقق ابداً؛ حتى الذين تراهم
اليوم يعرضون اديانهم على الناس و يبدون و يعيدون في دعاويهم
الفارغة و يتناحرون و يتقاتلون في ما بينهم لأجلها لا يستطيع
ان يدّعي احد منهم ان دينه الذي قدّمه على الناس و عرضه
عليهم يفي بالمقتضيات والمطالب التي جعلت الانسان بصفته الانسانية
محتاجاً الى «الدين» الكامل المطلوب. فمنهم من دينه منحصر
في دائرة النسل والامة؛ و منهم من دينه اقليمي او جغرافي
او مختص بطبقة دون طبقة؛ و منهم من لم يتولد دينه الا من
مقتضيات العصر الذي لم تمض عليه الا عشية او ضحاها، و نحن
لم نقدر بعدُ على الاحاطة بالمقتضيات والمطالب التاريخية للعصر الذي
نحن فيه والذي نراه يمرّ و يمضي امام اعيننا؛ اما العصور
المستقبلة فلا يمكن القول عنها الآن بأن هذه «الاديان» التي ما
تولدت الا من مقتضيات العصر الذي لم يمض الا بالامس، تكفي البشر
و تروي غليلهم في الاحوال والمسائل التي تحدث فيها. و لأجل
ذلك تراني لا اسألك عما عسى ان يكون الانسان قد نجح من قبل
في وضع دين كهذا؛ والذي انا سائلك الآن عنه: انه هل يستطيع
الانسان ان ينجح في مثل هذه المهمة، اذا سوّلت له نفسه ذلك؛

و هـذا سؤال فى غاية من الخطورة، لا يجدر بالباحث ان يَمُرَّ به مروراً من غير تفكير و اعمال روّية؟ و انما هذا من الاسئلة المهمة التى لها يدٌ فى توجيه مجرى الحياة و تحديد غايتها العليا. فلنتدبر المسألة ولنتثبّت فيها لنكون على بينة من الشيء الذى يُراد وضعه و ايجادُه و نعلم استعداد الانسان الذى نبحث الآن فى تأهّله لوضع ذلك الشيء و كفاءته لذلك الامر الخطير.

و مما ينبغى ان لا يغيب عن ذهن القارئ ان «الدين» الذى بيّنتُ آنفاً احتياج الانسان اليه و حقّقتُ افتقاره اليه، لا اريد به نظاماً للحياة تفصيليّاً، بكون محيطاً بكل دقيق و جليل من فروعها و جزئياتها، مهما اختلفت الازمنة و تقلّبت الاوضاع، حتى لا تسنح سانحة و لا تحدث كائنة فى اى عصر او قطر الا و تجدها مدوّنة مكتوبة فى ذلك النظام التفصيلى، و لا يبقى من مسؤولية الانسان بعد ذلك الا ان يتّبعه و يعمل حسب مقتضاه. كلا، والله، ليس المراد بذلك، و انما المقصود من «الدين» المطلوب مبادئ عالية خالدة لا تتغيّر و لا تزول، يتمكن الانسان ان يهتدى بها و يستضيء بنورها فى جميع ما يطرأ عليه من الحوادث والاحوال؛ مبادئ تحدّد وجهة الانسان و تعيّنها فى تفكيره و سعيه و كفاحه و تضيء الصراط السوى لتقدمه

و تحفظه من التخبط فى ميادين الوهم و الضلال و اضاعة جهوده و مساعيه فى تجارب فارغة لاطائل تحتها. و هذا يقتضى ان يعرف الانسان اولاً و قبل كل شيء حقيقة نفسه و حقيقة الكون الذى هو فيه و يعلمها علم اليقين — فان الظن والتخمين لا يغنيان فى هذا الباب شيأ — و يدرك منزلته فى هذا الكون حق الادراك. و كذلك يحتاج ان يكون على معرفة تامة — فان مجرد الحدس لا يسمن و لا يغنى من جوع فى هذا الشان — بحقيقة هذه الحياة الدنيا: أهى حياة تامة بنفسها او هى مقدمة لما بعدها؟ أهى رحلة تبتدئ بمولده و تنتهى بمماته لا تزيد منها و لا تنقص، ام هى مرحلة اولى من مراحل الرحلة البعيدة الشاسعة فحسب؟ ثم مع كل ذلك لابد من غاية للحياة معينة، تكون فى نفس الأمر — لا بمجرد الهوى — غاية الحياة البشرية التى خلق الانسان لاجلها حقيقةً والتى تتلاءم معها غاية كل فرد و كل مجموع من افراد البشر فى كل عصر و زمن، بل غاية الانسانية باسرها مجموعةً من غير تجاذب و تزاحم فى ما بينها. و ايضاً يحتاج الى اصول و مبادىء للاخلاق راسخة شاملة تلائم خصائص فطرتها جميعاً و يمكن انطباقها من الوجهتين النظرية والعملية على كل ما عسى أن يحدث من تبدل و تغير

فى الاوضاع والاحوال؛ حتى يتمكن من تهذيب شامس طبعه و تنشئة سيرته و خلقه على طابع تلك الاخلاق الراسخة و يتيسر له الاستنارة بمشكاة هدايتها في مختلف المنازل والاحوال التي يواجهها اثناء هذه الرحلة و يتسنى له الاقتباس من وميض تعاليمها في حل المشاكل و فك المعضلات التي تعترض له خلالها و لا يتجاسر على تغيير تلك المبادىء الخلقية الراسخة والاستبدال بها مبادىء اخرى جديدةً من تلقاء نفسه كلما تغيرت الاحوال و تجددت المشاكل، اى لا يصير كالذى«١» لا مبدأ له و لا غاية و انما جُلّ همّه ان ينتهز كل فرصة لارضاء شهواته و يغتنم كل ساعة لاتباع اهوائه. و كذلك يحتاج الى قواعد للمدنية جامعة شاملة تُوضَع على علم بالمجتمع البشرى او معرفة تامة بحقيقته و غايته و مطالبه الفطرية، قواعدُ تقوم على أُسسٍ من العدل والقسط من غير افراط و لا تفريط و تراعى فيها مصالحُ البشر كافة بحيث يمكن الانسانَ باتباعها و قفوّ آثارها ان يسعى وراء استكمال جميع نواحى حياته والنهوض بها و ترقيتها، مهما تغيرت الازمان و الاحوال. و فوق ذلك يحتاج الى حدود متبيّنة جامعة تكون له كالمنارة فى ظُلمات الحياة و طرقها الملتوية المتشعبة تحفظه من الضلال

«١» Characterless opportunist

والفوضى فى العمل و تضمن له السلامة في سيرته الشخصية و سلوكه الاجتماعى و مساعيه و اعماله الفردية والاجتماعية و توجهها وجهة الحق و المنهاج المستقيم، و تحذره فى كل منعطف و مفترق طريق و تنبّهه فى كل مرحلة خطرة و منزل محفوف بالاخطار و ترشده الى الصراط السوى والطريق المستقيم حينما تتشعب الطرق و تعمى السبل على السابلة والسالكين. و على ذلك فانه مفتقر الى قوانين عملية خالدة تكون فى حد ذاتها و وضعيتها جديرةً بأن يتبعها الناس و يتلقوها بالقبول فى كل عصر و كل زمن، و ايضاً تستطيع ان تُبقى الحياةَ البشرية مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بتلك الحقيقة الأصلية و غايةِ الحياة الانسانية و تلك المبادئِ الخلقية والقواعدِ المدنيةِ والحدودِ العمليةِ التى بُيّنت اصولها و اوضحت معالمها فى ذلك « الدين ».

هـذا هو الشيء الذى نحن الآن بصدده. فهل ترى أن الانسان يملك من الوسائل والاسباب ما يقدر به على ان يضع له ديناً كهذا بنفسه؟ والذى لا يختلف فيه اثنان أن الوسائل التى يملكها الانسان لاستنباط دينه او منهاج حياته تنحصر فى اربع. الأولى «الهوى» او «الشهوة النفسانية» والثانية «العقل» والثالثة «التجربة والمشاهدة» و رابعة الاربع

،السجل (Record) التاريخي للتجارب الماضية، . و لا احسب احدا يقدر أن يرشدني الى وسيلة خامسة غير هذه. فتأمل هذه الوسائل الاربع و دقق النظر فيها مهما استطعت من التأمل والتدقيق و النظر: هل في وسعها ان تساعد الانسان في وضع «الدين» المنشود و ايجاده؟ والذى هدانى اليه البحث والتحقيق بعد ما صرفت في تحقيق المسألة جزءا غير يسير من عمرى و قتلتها بحثاً أن هذه الوسائل ما كانت لتساعد في ايجاد «الدين» و وضعه اصلاً. اما اذا جاء ذلك الدين من عند غير البشر هدايةً لهم و ارشاداً الى طرق الخير والسداد، فان هذه الوسائل تستطيع ان تساعد الانسان و تعينه في فهمه و معرفة قدره و ادراك حقيقته و تشكيل نظم الحياة حيناً بعد حين وفق مقتضاه.

ولنأخذ هذه الوسائل الاربع و لننظر في كل واحدة منها على حدة، عسى ان نعرف الاسباب التي جعلتها غير قادرة على القيام بهذه المهمة. فلنبدأ بالهوى اولاً. أوَ تراها تستطيع ان تكون هاديةً للبشر؟ فانها، و ان كانت الدافع القوى للعمل في الانسان، لا تستحق ان تكون هادية للبشر بحال من الاحوال لما في طبيعتها من دواعي الضعف والخور. و لعمرالحق أنها اضلت العقل والعلم في كثير

من الاحيان، فكيف يُرجى منها ان تتولى الهداية بنفسها و تأخذ زمامها بيدها منفردةً. و مهما هذَّبتَ من شموس طبيعتها و كبحتَ من جماح فطرتها و جعلتَها مستنيرة الفكر، متنورة البصر، فلن تأتى إلا بحكم مُعوَجٍّ حائد عن طريق الصواب فى جُلّ الاحوال بل كلها، اذا فوَّضتَ اليها مقاليد الحكم؛ هذا، و ليس فيه ادنى مبالغة و لا مُجازفة، لأن الميول و الرغبات التى توجد فى طبيعتها تعدل بها عن وجه الصواب و تُلجئها الى حكم أو رأى يتأتى به المقصود مستعجلاً و بسهولة و بأىّ طريق كان. و هذا ضعفٌ طبيعى كامن فى جِبلّة الهوى و نفس حقيقتها. فالمشيئة، أيًّا ما كانت، مشيئة فردٍ أو طبقةٍ أو «المشيئة العامة» (General will) التى ذكرها روسو (Roussue) و اعاد فيها و ابدأ، لا تصلحُ بطبيعتها و جبلتها ان تكون مساعدة فى وضع «الدين» الذى نحن بصدده. أما «المسائل النهائية» (Ultimate Problems) كماهية الحياة البشرية و غايتها و مآلها فلا يمكن ان تكون «الهوى» أو المشيئة الانسانيةُ عوناً بحال من الاحوال فى حلّها و فكّ معضلاتها.

و أما أخذ «العقل» ثانيا. فلا جدالَ فى استعداداته القيّمة، و ايضا لا تُنكر اهمّيّتهُ و مكانته فى الحياة البشرية. و كذلك لا مراء فى أنه من اعظم القوى البشرية التى تدفع

الانسان الى العمل و تهديه الى ما تشاء من السُّبل. لكن العقدة التى تُواجهنا لأول وهلة فى هذا الباب: أىُّ عقل هو الذى تُناط به مهمة وضع «الدين» و ايجاده؟ أ يكون هو عقلَ زيد أو عمرو؟ أو عقولَ جميع البشر أم عقل طائفة مخصوصة منهم؟ أ يكون هو عقلَ ابناء عصرنا، أو عقل الذين مضوا من قبلنا، أم عقل الذين سيأتون بعدنا؟ وَهبْ أننا صرفنا النظر عن هذه العقدة، فهل يمكن ان يقول احد و يَدّعى ان العقل جدير بأن تُناط به هذه المهمة و يُعتمد عليه فى وضع «الدين» المطلوب؟ هل يستطيع احد ان يقول بذلك بعد ما يعرف «العقلَ الانسانىَ» بحقيقته و حدوده؟ و كيف يمكن ذلك، فان احكام العقل كلّها مبنيّةٌ على المواد (Material) التى تُمدّها له الحواسُّ و تُزَوّدُه بها، فان زَوَّدَتْه بالمواد المخطئة، جاءت احكامُه مخطئةً؛ و ان زَوَّدَتْه بالمواد الناقصة، جاءت احكامُه ناقصةً. و اما الامور التى لا تزوّده فيها الحواسُّ بشىء، فان العقل ان كان يعرف نفسه فلا يجترئُ على القطع بشىءٍ فى تلك الامور. و ان كان ممّن اغترّ بنفسه والتبستْ عليه طبيعة نفسه، كان مَثَلُه فى الحكم كمثل الذى ضلّ الطريق فجعل يخبط خَبْطَ عشواء. فقل لى بربك أنَّ هذا العقل «المسكين» الذى تراه مشدودا بحبال من هذه الحدود

(Limitations) الضيقة، كيف يُعَدّ اهلاً لأن يُفوَّض اليه هذا الامر الخطير و يُكلَّف أن يَضَعَ ذلك «الدين» المأمول للنوع البشرى؟ فان «المسائل النهائية» (Ultimate Problems) التى يتوقف عليها امر وضع ذلك «الدين»، لا تأتى فيها الحواس بشيء من المواد اصلاً. أفترى أن يُقضى فى تلك المسائل بمجرد الاوهام والاخيلة والاقيسة التى لاطائل تحتها؟ و كذلك القيم (Values) الخلقية المستقلة التى لا بد من تعيينها و تحديدها في مهمة وضع ذلك «الدين»، لا تُزَوِّد لها الحواس الا بمواد ناقصة جداً، فهل يمكن يُرجي من العقل ان تُعين و تحدّد القيم الصحيحةَ الكاملة على اساس المواد الناقصة؟ و كذلك العناصر الاخرى التى يتركب منها «الدين» و يتألف، حسب ما تقدم لنا ذكرُها، لا تأتى الحواس لأى عنصر من تلك العناصر أو جزء من تلك الاجزاء بمواد صحيحة كاملة يمكن العقلَ ان يبنى على اساسها نظاماً جامعاً كاملاً. و زدْ على ذلك أن عنصر الهوىٰ لازمُه اياه ملتصق به دائما، و هوالذى يحول بينه و بين الحكم العقلى المحض و لا يَدَعُه الا عادلاً عن طبعه المستقيم و مائلاً عن وجه الحق و الصواب قليلاً أو كثيراً. وَهبْ ان العقل الانسانى لا يُخطئ فى ترتيب المواد التى تُعدّها له الحواس و فى الاستدلال بها. و لكنه لا يلزم منه انه قد اصبح

يستحق أن يُلقى على كاهله مثلُ هذا العبء الثقيل، لأنه لا يستطيعه و لا يقدر عليه البتة لما فى نفس طبعه من الضعف و الوهن. و انْ ألقَيتَ هذا العبء الفادح على عاتقه فقد ظلمتَه و ظلمت نفسك معاً.

أما الوسيلة الثالثة، و هى العلم الذى يحصل بالمشاهدة والتجارب، فأنا اوّلُ من يقدر هذا العلم حق قدره و لستُ ممن يزدرونه أو لا يُعطونه قسطه من الأهمية والخطورة. و لكن مع ذلك أرى أن صرفَ النظر عن الحدود الضيقة التى احاطت به من كل جانب و توسيعَ أُفقه و دائرة نفوذه اكثر مما تستحقه، مما لا يَمُتّ الى العلم بسبَب و لا يستند الى اساس. والذى له معرفة بحقيقة العلم الانسانى، لا يَسَعُه الا الاعترافُ بأنه لا سبيل لهذا العلم الى استكناه سر «المسائل النهائية» و استجلاء حقيقتها، لأن الانسان لا يملك شيأً من الوسائل التى تُرشده و توصله اليها. فانه لا يقدر ان يُشاهد بأُمّ عينه حقيقةَ تلك «المسائل النهائية» و كنهها، و كذالك لا يمكنه ان يرى فيها رأياً أو يقطع فيها بشيء يصح عليه اطلاقُ كلمة «العلم»، مُستَدِلاً بالاشياء التى تأتى تحت المشاهدة و تدخل فى باب التجربة. فثبت من كل ذالك ان المسائل التى لابد

من معرفة حقيقتها و ادراك سرها لاول الأمر فى مهمة وضع ذلك « الدين »، خارجةٌ عن حدود العلم و دائرة نفوذه تماماً.
أما أنّه هل يمكن ان يُفوّض اليه امرُ تحديد القيم الخلقية و اصول المدنية و تعيين الحدود التى تحفظ الانسان من تنكّب المحجة العادلة؟ فأوّل سؤال يواجهه الباحث فى هذا الشان أنه: « أيّ علم هذا الذى يقوم بأداء هذه المهمة العظمى؟ أهو علم رجل بعينه أو علم طائفة مخصوصة أم علم عصر محدود؟» و اذا صرفنا النظر عن هذا السؤال الناشئ ههنا لطبيعة الحال فعلينا ان ننظر فى الشروط التى لا مندوحة عنها فى تادية هذه المهمة بطريق علمى. فالشرط الاول لهذه المهمة ان يحصل العلم بجميع القوانين الفطرية التى يعيش تحتها الانسان و يتنفّس فى هذه الكرة الارضية. و الشرط الثانى من شروطها ان يتكمل العلوم التى لها صلة بحياة البشر نفسها. و ثالثها ان تُجمع معلومات هذين النوعين من العلوم، أى علوم الكون و العلوم التى تتعلق بحياة الانسان، يقوم بجمعها ذهن عبقريٌ و يرتّبها ترتيبا صحيحا و يستدلّ بها استدلالاً سليما مستقيماً حتى يمكنه أن يُعيّن القيم الخلقية و اصول المدنية و يحدد الحدود التى تحفظ الانسان من العدول عن الصراط السوى.
و من البين الواضح أن هذه الشروط لم تتحقق بعدُ و لا يُرجى

ان تتحقّقَ فى المستقبل حتى و لا بعد خمسة آلاف من السنين. وهبْ أنها تحققت باجمعها قبل انقضاء العالم أو الانسانية بيوم أو ساعات، فأىَّ مغنم تكتسبُ الانسانية بذلك؟

و لنختم هذا المبحث بالنظر فى رابعة الوسائل الاربع اوضع الدين، و هى التى يُعبرُ عنها «بسجلّ الانسانية»، أو «السجل التاريخى للتجارب الانسانية الماضية». و ما أنا بالذى يجحد حسناته و منافعه و ينكر ما له من الخطورة والاهمية، و لكن الذى اراه و اجزم به — و ستوافقوننى على ذلك اذا تدبّرتم المسألة و أمعنتم فيها — أن هذا ايضاً لا يكفى القيام بمهمة وضع «الدين» الجليلة العظيمة الشان. و لستُ بسائل الآن: «هل انتقل هذا «السجلُ» من الماضى الى الحال، محافَظاً على صحته و محتَفظاً بدقائقه و جلائله؟» و كذلك لستُ بمستفسر فى هذا المقام انه: أىُّ ذهن يكون هذا الذى يُمثّل الانسانية فى اداء مهمة وضع «الدين»، مستعيناً بذلك السجلّ التاريخى؟ أيكون ذلك ذهن هيجل (Hegel) أو ذهن ماركس (Karl Marx) أم ذهن ارنست هيكل (Ernst Haeckel) أو ذهنا آخر من الاذهان؟» والذى اسائلكم الآن فقط ان السجل التاريخى الذى يُعِدُّ الموادَّ اللازمةَ لوضع ذلك «الدين» المنشود: هل تُحدِّدونه بشئ

من حدود اليوم أو الشهر أو السنة فى الماضى أو الحال أو المستقبل أم لا؟ فاذا حصرتم ذلك السجل فى شيء من دوائر تلك الحدود — و مالكم من مناص عن ذلك — فمعناه ان الذين قُدِّر لهم ان يعيشوا و يزدهروا بعد ذلك اليوم المحدود يكونون سعداء مغتبطين؛ و اما الذين خلوا قبل ذلك اليوم، فبئس المصير مصيرهم، و لا حول و لا قوة الا بالله.

هذه اللمحات الموجزة التى الممتُ اليها فى ما تقدم، ارجو أن لا أكون اخطأت فيها فى البحث النظرى أو الاستدلال بالقضايا الثابتة. فاذا كان هذا كله الذى بيّنته الآن عما يملكه الانسانُ من الوسائل لوضع الدين صحيحاً فليس هنالك شيء يعوقنا عن الرجوع الى قول الحق و الايمان بأن الانسان، و ان امكنه أن يضع لنفسه ديناً محليا أو عصريا مزيجا من العناصر الواهية، خليطا من الغث و السمين، فانه ليس فى وُسعه ان يضع ذلك «الدين» المطلوب بحال من الاحوال، و ذلك متعذر البتة، و قد تضافرت الحجج على عجزه عن ذلك؛ فانه لم يقدر على ذلك فى عصر من العصور الماضية و لن يقدر على ذلك فى المستقبل ايضا، لكونه من باب المحال الذى يتعذر تحققه. هذا، فان لم يكن الله موجودا لهداية الخلق، كما

يزعم الذين كفروا بالله و بآياته، فلا سبيل للانسان في هذه المعمورة الا ان ينتحر و يقتل نفسه بيده. فالسالك الذى ليس له دليل و لا يملك بنفسه من الوسائل ما يهتدى به في ظلمات الطريق، ما كتب له الا الحزن و الياس، لا غير؛ و خير لمثل هذا السالك ان يصطدم بصخرة في قارعة الطريق حتى يتخلص من ذلك الياس المؤلم المُوجع. و ان كان الله موجوداً، و لكنه ليس بالذى يهدى الخلق و يُخرجهم من الظلمات الى النور، كما يقول به الذين غلبت عليهم العلومُ الفلسفيةُ و الطبيعية فأضلتهم عن ادراك الحقيقة الربانية، فذلك أدهى و أمرّ. و ما ظنّك بالله الذى خلق الخلق و دبّره فاحسن تدبيره و اخرج من بطون الارض و الاودية و الجبال كل ما يحتاج اليه هذا الكون و مَنْ فيه من ادوات العيش و الزينة و اسباب البقاء و الحياة و انشأ لهم كل ما يمكن ان يتصوره العقل البشرى — ما ظنك بالله الذى فعل هذا كله و لكنه لم يُدبّر الامر الذى يحتاج اليه الانسان اكثرَ من كل شيءٍ، و الذى بدونه تكاد حياة النوع البشرى كله تعود سُدىً و عبثاً. و لعمرك ان العيشة في الدنيا التى خلقها مثل هذا الاله لبليّةٌ أشدُّ و أنكى من أيّة بلية يمكن تصوُّرُها للجنس البشرى. فما نكاؤك هذا على الفقراء

و المساكين و المرضى و الجرحى و المنكوبين و الجماهير المضطهدة و بؤسهم و شقائهم؟ و انما عليك ان تبكى لشقاء النوع البشرى بأسره الذى تُرك و شأنه فى حال من العجز و الافتقار بحيث يخيب فى تجاربه مرةً بعد أخرى، يتعثر فيسقط ثم ينهض و يمشى و لا يمشى الا ليعثر؛ و فى كل عثرةٍ له تهلك بلادٌ بأسرها و تفنى شعوبٌ عن بكرة ابيها. والمسكين لا يعرف شيئاً عما خُلق لأجله و لا علم له بما ذا يسعى وراءه و لا يدرى كيف السبيل اليه؟ والله الذى ابرزه الى عالم الوجود فى هذه الكرة الارضية ينظر الى كل ذلك نظرةَ المتفرّج، و لا يهمّه هداية البشر أو ضلالتهم فى شيء، فانه لم يكن له الا الخلقُ و قد قضى الوطر من ذلك ——
كبُرَتْ كلمةً تخرج من افواههم، ان يقولون الا كذباً.

و بالعكس من كل ذلك جاء القرآن بصورة أخرى للكون و المجتمع البشرى و علاقتهما بربّ العالمين و خالق الكون و مُدبّره، صورةٍ صادقة سليمة تحلّ العقد برمّتها و تفكّ المعضلات بحذافيرها. ألا، و هى أن الله ليس بخالق فحسبُ، و انما هو الهادى الذى انعم على كل مَنْ فى هذا الكون من الموجودات «بالهداية» التى تقتضيها بفطرتها، و التى لم يكن لها بُدٌّ منها كما قال عزَّ من قائل:

[«١» اَلَّذِىْ اَعطىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَه ثُمَّ هدىٰ]. و ان شئت الدليل فعليك بأية نملة أو ذبابة أو عنكبوت و تأمل فى حياتها و نشوئها و معايشها، ينكشف لك الأمر و يتجلّ لك الحقيقة. فذلك الله الذى يهدى هذه الحشرات و غيرها، يهدى البشر ايضا و يرشدهم الى سواء السبيل. فالطريق الاقوم للبشر ان يتجرد عن انانيته و الاغترار بنفسه و يُسلم وجهه لله و يتّبع ذلك «الدين» أو نظام الحياة الجامع الكامل الذى ارسله الله لهداية البشر بواسطة انبيائه و رُسله الذين اصطفاهم لابلاغ رسالته.

هذه دعوى القرآن. و قد عرفتَ آنفاً النتيجةَ التى ظهرت لنا بعد ما اختبرنا وسائل الانسان و قُواه العديدة المتشعبة؛ فنحن الآن بين امرين، و لا ثالثَ لهما: اما ان نتلقى هذه الدعوى بالقبول و اما أن نُلقى بانفسنا فى مهوى من ظلمات اليأس التى لا يُعرف اولها من آخرها و لا يتراءى فيها، و لا و ميض من نور الأمل. و لا يحسبنّ احد اننا امام وسيلتين اثنتين للحصول على ذلك «الدين» و اننا مُخيرون بينهما ان نختار أيّتهما شئنا. لا، والله، ليس الامر بذاك، و انما الحقيقة الواقعية ان الوسيلة التى يُمكن ان تنال

«١» طه: ٥٠

بها « الدين » المطلوب تنحصر فى واحدة و لا تتعداها ابداً. و الذى خيّرنا فيه، هو اما ان نستعين بهذه الوسيلة الوحيدة، فنظفر بسعادتَي الدنيا و الآخرة، و اما ان نكفر بنعمة الله هذه و نؤثر الضلال على الهداية فنظل نعمَهُ فى دياجير الشكوك و نتسكّع ظلمات الاوهام.

اذا عرفت هذا، فليكن منك على علم ان الحجج التى اتينا بها فى ما تقدم لاثبات كلامنا، توصلنا الى نتيجة واحدة و هى أنه لا مندوحة للانسان عن قبول دعوى القرآن هذه، و أنّه لا سبيل لسعادته الا اياه؛ كأنّ بتلك الحجج و البراهين تلجئنا الى قبول تلك الدعوى طائعين أو مكرَهين. لكنك اذا تدبَّرت القرآن و عكفتَ على مثالثه و مثانيه متأملاً مستبصراً، عرفتَ ان الأمر ليس كذلك، فان الآيات البينات و البراهين القاطعة التى جاء بها القرآن مستدلاًّ بها على دعواه اسمىٰ من ذلك شرفاً و اجلّ قدراً. فانها تحثّنا و ترغّبنا فى ان ندين بدين الله، و قلوبنا مطمئنة بالايمان، مقتنعة بصدق كلمتها، بدلاً من ان نقبل دعوته مكرَهين أو مضطرّين، لا ينشرح لها الخاطر و لا تطيب بها النفسُ. و اقوى تلك الحجج و البينات المبثوثة فى سور الكتاب العزيز و آيه و اشفاها للصدور و اقربها للعقل اربعٌ؛ و هى التى صرِّف فيها القول و اعيد

ذكرها مراراً باساليب مختلفة مبتكرة. و ها هي:

(i) الاسلام هو المنهاج الصحيح الوحيد للحياة البشرية، لأنه يُوافق الحقيقة على ما هى عليه فى نفس الأمر و كلّ طريق دونه ليس من الحقيقة فى شئٍ كما ورد فى التنزيل:

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ، وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَّ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

[آل عمران: ٨٣]

(ii) هذا هو المنهاج الوحيد الصحيح للانسان، لأنه هو الحق، و لا يصحّ له طريقٌ آخر حقا و عدلاً، كما قال عزّ من قائل:

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَّالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ. أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

[الاعراف: ٥٤]

(iii) هذا الطريق هو الصحيح للانسان، لأن حقائق الاشياء على وجهها و على ماهى عليه، لا يعلمها الا الله، و هو الذى لا ياتى هدايته الخطاء من بين يديها و من خلفها. قال، تباركت اسماؤه:

إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ.

[آل عمران: ٥]

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

[البقرة: ٢٥٥]

قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ.

[البقرة: ١٢٠]

(iv) هذا هو الصراط المستقيم الوحيد للانسان، لأنه لا يمكن ان يقوم العدل إلا به؛ و أىّ طريق يسلكه من دونه لا بد أن يسير به الى الظلم و يحيد به عن طريق العدل، كما قال تعالى شانه:

وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

[البقرة: ٢٢٩]

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

[المائدة: ٤٥]

هذه هى الحجج و البينات التى تلزم كلّ من اوتى شيأ من سلامة الطبع و نزاهة الرأى أن يسلم وجهه لله و يستهديه كلما عميت عليه السبيل و يرجع اليه كلما التبست عليه وجوه المسالك.

و ربما يسألنى القارىء فى هذا المقام: فهل نؤمن بكل من ياتينا بدين و يدّعى أنه من عندالله؟ و الا فما الذى يميّز به الخبيث من الطيب و الزائف من الصحيح؟ و من أين لنا بالمقياس الذى يفرق بين الدين البشرى و بين الدين الالهى المنزل من عندالله تعالى شانه؟ و هذه شبهة ربما تتخالج فى صدر كل باحث فى هذا الموضع، و قد خالجتنى بنفسى فى اثناء البحث و التحقيق. فقبل أن اتقدم فى الكلام، أرى علىّ لازماً ان ادفع هذه الشبهة بما فيه مقنع و كفاية. والجواب عنها و ان كان يقتضى كلاما فى غاية من الدقة والتحقيق، محيطاً بجميع نواحى الموضوع، و لكنى اقتصر ههنا على بيان مقاييس اربعة مهمة تفرق بين الفكر الانسانى و الفكر الالهى و توضح مدى الفرق بينهما؛ و ذلك ايضا بلمحات موجزة

تروى الغليل و تشفى العليل ان شاء الله تعالى. و دونك بيانها فى مايلى:

(أ) فأوّل خصائص التفكير البشرى و أهمها و اقدمها ذكراً أنه لايخلو من الخطأ العلمى و أنه منحصر فى دائرة ضيقة. أما التفكير الالهى فتتجلى فيه أبهةُ العلم الصحيح الواقع الذى لايتقيد بحدود من صنع البشر. فالذى من عند الله يستحيل ان نجد فيه شيأ يُناقض حقيقةً علميةً ثبتت و تحققت فى أىّ عصر من العصور أو تعثرَ فيه على شيء يُقال عنه — و يُثبَتُ — ان مصنفه قد غابت عنه ناحية معلومة من الحقيقة أو خفى عليه جانب مُعين منها. و لكنه مما ينبغى للباحث فى هذه المسألة ان يكون على حذرٍ خلال البحث و التنقيب، حتى لايغفلَ عن الفرق العظيم الذى يُوجد بين العلم والقياس العلمى و النظرية العلمية. فان الاقيسةَ و النظريات العلميةَ السائدة فى عصر من العصور المسيطرةَ على العقول و الافكار، رُبّما تُعدُّ خطأً من صميم العلم و حقائقه الثابتة؛ والحال أنه يستوى فيها جانبا الصواب والخطأ و لا ترجح

ـكفّة على أخرى اصلاً. و قلّما يستطيع احدٌ ان يدلّنا على اقيسةٍ و نظريات ثبتت على تقلبات الزّمن و شهدت التجارب المتواصلة على مدى الايام بكونها علماً متحققاً ثابتاً لايتطرق اليه الوهم و لايتسرّب اليه الشكّ.

(ii) و من خصائص التفكير البشرى التى تغضّ من قدره و تقلّله فى عين الباحث ضيقُ وجهة النظر و عدم اتساع دائرتها. بالعكس من ذلك ترى التفكير الالهى واسع المدى، بعيد الغور مُحلّقا فى سماء ارفع و اوسع بكثير من سماء التفكير البشرى. و كلما نظرت الى شيء مُتفجّر من ينبوع التفكير الالهي احسست كأنَّ صاحبه ناظرٌ الى هذا الكون و الى ما وراءه من الاحقاب المتطاولة و الى ما بعده من العصور الآتية، كأنه ناظر الى الحقائق برُمّتها نظرةً واحدةً لا يخفى عليه شيء فى بطون الارض و لا فى جو السماء و لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السمٰوات و لا فى الارض. فأىّ وزن يُقام لافكار فطاحل الفلاسفة والمفكرين فى جنب هذا التفكير الالهى السرمدى؟ و ما مَثلُ

اولئك الفلاسفة والمفكرين في هذا الباب الا كمثل
صبيان يبنون على الرمال بيوتا و يتلهون بها.

(iii) هذان اثنان. و اما الثالث فهو أن التفكير البشرى لا يخلو من أن يمتزج فيه الحكمة و التدبر بالرغبات و العواطف و تتخلى الحكمة عن بعض مكانها حتى تتمكن منه العواطف والرغبات فيصطبغ التفكير البشرى بالصبغتين؛ هذا بخلاف ما نشاهده في التفكير الالهى، فانه تتجلى فيه الحكمة العادلة و التدبر النزيه باجلى مظاهرها بحيث لا يمكنك أن تدل في احكامه على شيء من الانحياز الى العاطفة و التأثر بالميول و الرغبات.

(iv) و أما الرابع فهوالضعف الكامن في طبيعة التفكير البشرى بأن كل نظام يبدعه و يخترعه من عند نفسه، لابد ان يجد الانحياز الى جانب و التفريق بين البشر لاسباب لا تمت الى العقل بصلة، و كذلك تفضيل بعض على بعض والاستئثار بأحد دون آخر من غير مستند عقلى — لابد ان يجد كل ذلك سبيله اليه و يتدخل فى تكوينه و نضوجه. و ذلك أن لكل رجل صلات

و علاقات شخصيةً بافراد من البشر ربما لا تكون له بافراد آخرين من دونهم. و من البيّن الجليّ الذى ليس فيه ادنى خفاء ان نظامَ الحياة المستخرَجَ من التفكير الالهى يكون خالصاً متطهرا من مثل هاتيك العناصر البتة.

هذه هى المقاييس الاربعة. فانظروا فى كل نظامٍ للحياة يَدّعى بكونه «الدين» المنزّل من عندالله و امتحنوه و زنوه بها، فان كان خالياً من خصائص التفكير البشرى هذه كلها، و وجدتهَ متصفا بجميع خصائص الجامعية و العالميّة والسرمديّة التى تقدم ذكرها سابقاً بصدد كلامنا فى اثبات حاجة البشر الى ذلك «الدين»، فلا يعوّقنّكَ شئٌ عن الايمان به والاستسلام له.

الآن، و قد فرغتُ من البحث فى المسألتين الأوليين الأساسيتين من موضوع هذا المقال، أُريد ان تكون خاتمته بالكلام فى المسألة الثالثة من تلك المسائل المهمة التى جعلتها مناط البحث اليوم. و هى انه اذا آمن المرء بهذه الدعوى و «بالدين» الذى استيقنت نفسه أنه الدين المنزل من عندالله، فما هى الواجبات و المقتضيات التى يقتضيها و يستدعيها الايمانُ بها و الاستسلام لها؟

فالاسلام، كما قلتُ فى بداية هذا البحث، هو الخضوع و الاستسلام و الاذعان لامر الله. والظاهر أنه لا يمكن الجمعُ بين هذا الخضوع و الاستسلام و الاذعان و بين الأنانية و الاستبداد بالرأى و الحرية فى الفكر و العمل، فانهما على طرَفى نقيض. و ذلك ان « الدين » الذى آمنت به، لابد ان تُفوِّض اليه شخصيتك كاملةً، فلا يمكنك أن تستثنى جزءا من اجزاء فكرك و عملك من الدخول فى حوزة الطاعة. و من مقتضيات الايمان اللازمة ان تدخل فى السلم كافةً، حتى يكون ذلك « الدين » ديناً لعقلك و قلبك، و لعينك و أُذنك، و لِيدك و رجلك، و لجسدك و بطنك، و لقلمك و لسانك و لايامك و لياليك، و لمساعيك و اعمالك، و بالجملة أن لا يكون جزء من شخصيتك أو جانب من جدّك و كفاحك خارجاً عن حوزة ذلك الدين الذى آمنتَ به. و متى استثنيتَ شيأً من طاعة ذلك « الدين » و اخرجته من حوزة نفوذه و سُلطته فأعلم أنه قد خالط دعوى ايمانك الكذبُ بقدر ما استثنيت ذلك الشئ من طاعته و دخلها الغشّ من الجهة التى اخرجت منها بعضَ ما احببت من حوزة نفوذه. و من واجب كل فرد من افراد البشر يُحبّ الصدق و الأمانة أن يبذل الجهد المستطاع فى تطهير حياته من الكذب و الغشّ.

و كذلك بيّنتُ فى مُفتتح هذا البحث أن الحياة البشرية مجموعٌ كلىٌّ لا يمكن تجزئته الى فروع و شُعب. فلا مندوحة عن ان يكون للحياة البشرية جمعاء دينٌ واحدٌ. اما أتباع دينين أو ثلثة فى وقت واحد فما هو الا برهان على ضعف العقيدة و اضطراب الحكم العقلى و ارتباك فى العزيمة. فانه اذا آمنتَ بدين من الاديان و اطمئنّت نفسك بأنه «الدين» المنزّل من السماء فلم يبق لك بدٌّ من ان يكون ذلك «الدين» ديناً لحياتك بأسرها، محيطاً بجميع فروعها و شُعبها. و ان كان ذلك «الدين» ديناً لحياتك الشخصية (Personal)، فليت شعرى ما الذى يمنعه من ان يكون ديناً لبيتك و لتربية اطفالك و مدرستك و مناهجها التعليمية و لا ندرى ماذا يعوقه من ان يكون ايضاً ديناً لتجارتك و مكاسب رزقك و حياتك الاجتماعية (Social) و ديناً لخطتك القومية و حضارتك و سياستك و لأدبك و كل ما يتصل بالحياة البشرية من علم و ادب و فن. فكما أنه من المستحيل ان يكون اللؤلؤ لؤلؤا اذا كانت اللآلىء منتثرة غير منتظمةٍ، و حينما تنخرط فى سلك أو تُنتظم فى عقد فاذا بها تتحول بمجموعها قطعات من الخذف مثلاً؛ كذلك مما يأباه الذوق و يُنكره العقل السليم أن تتّبع ديناً فى حياتنا الشخصية، ثم اذا قُمنا بتنظيم شؤون حياتنا

المختلفة، يبقى بعض فروع تلك الحياة المنظمة مستثنياً من دائرة نفوذ ذلك «الدين» خارجا عن حدوده و على قوانينه.

و فوق كل ذلك من مقتضيات الايمان المهمة العظيمة أنه اذا آمنتَ بدين من الاديان و استيقنت نفسك أنه هو «الدين» المنزل من عندالله، اصبح من واجبك ان لا تألو جهدا فى نشر مكارم ذلك الدين و بث محاسنه و فضائله و أن تبذل الجهد المستطاع فى دعوة البشر كافةً الى الايمان به والدخول فى دائرته حتى يكون ذلك «الدين» دينَ العالم بأسره، بل ينبغى ان تكون هذه الغاية غاية امانيك فى الحياة و همكَ الوحيد فى العالم.

فكما ان الحق بطبيعته لا يرضى الا أن يعيش غالباً قاهراً، كذلك من صميم طبيعة عاطفة حُبّ الحق، ان لا يهدأ لها مضجع و لا يقرّ لها قرار، حينما يتبين لها الحق، الا بمتابعة الجهود و مواصلة المساعى لاعلاء كلمة الحق و رفع رايتها و غلبتها على كل باطل يقوم فى وجهها. و لعمر الحق أن الذى نشاهد بعينى رأسه أن الباطل قد تغشّى العالم بأسره، و أنّ ظلماته لا تزال تهوى بالبشرية الى هوة سحيقة من الدّمار و الخراب — ان الذى ينظر كل ذلك

صباحَ مساءَ و لا يشعر بألم فى نفسه و لا يُحِسُّ بقشعريرة فى فؤاده و لايتأذّى لهذا المنظر المؤلم الذى احاط العالم بسرادقه فاعلم أن جذوة «حبّ الحق» قد خمدت فى نفسه أو كادت؛ و ان لم يُبادر الى استقداح زنادها بالعمل و الجدّ و الكفاح فلا يبعد أن ينقلب هذا الخمود الطارئ الى خمودٍ ابدى. و فى ذلك هلاكه و هلاك من بيده زمامُ امرهم. اعاذنا الله و اياكم من ذلك.

و آخر دعوانا ان الحمد لله رب العٰلمين.

اخطاء مطبعية

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٥	٧	انمـاهي	انمـاهي التي
٦	١ (حاشية)	مندوسه	مـدوبي
٣٧	١٢	قواعـدُ	قواعـدَ
٣٢	٩	يمكـن	يمكـن ان
٣٢	٩	تعين وتحدد	يعين ويحـدد

بسم الله الرحمن الرحيم

دعوتنا

(١) دعوتنا لكافة البشر والمسلمين منهم خاصة، ان يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذوا الها ولا ربا غيره.

(٢) ودعوتنا للذين يقولون بالاسلام او يظهرون ايمانهم بتعاليمه ان يخلصوا دينهم لله ويزكوا انفسهم من شوائب النفاق واعمالهم من مظاهر التناقض.

(٣) ودعوتنا للعالم بأسره ان يحدثوا انقلابا عاما فى نظام الحياة الحاضر الذى استبد بزعامته الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الارض فسادا وأن ينتزع هذه الزعامة الفكرية و العملية من ايديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا.

هذه دعوتنا، ولنشر كلمتها و تعميم صوتها تأسست 'الجماعة الاسلامية' فى الهند سنة ١٣٦٠ الهجرية. ولا بلاغ هذه الدعوة الى العالم الاسلامى عامة و بلاد العرب خاصة تأسست 'دار العروبة للدعوة الاسلامية' فرعاً لها منذ اربع سنين.

و ها نحن قد شرعنا فى ترجمة كتب الدعوة و نشرها بلغة القرآن الكريم. والنية معقودة على اصدار مجلة شهرية مسماة

بالّهدى، حينما تسمح لنا به الظروف، و الموعد ليس ببعيد ان شاء الله تعالى.

و هذه الرسالة ثالثة منشوراتنا بالعربية. والتى قد طبعت منها: 'نظرية الاسلام السياسة' و 'منهاج الانقلاب الاسلامى' و التى منها تحت الطبع أو معدّة له، نذكرها فى مايلى:—

(١) الاسلام و الجاهلية

(٢) معضلات الاقتصاد و حلها فى الاسلام

(٣) الجهاد فى سبيل الله

فالرجاء من اخواننا الناطقين بالضاد ان يساعدونا فى هذه المهمة و يشدوا ازرنا فى تحقيق هذه البغية السامية، و لهم منا جزيل الشكر و الامتنان.

العاجز

مسعود الندوى

معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

JAMA'AT-I-ISLAMI, Rawalpindi (Pakistan).

تطلب مطبوعاتنا العربية و الاردية و الانكليزية و سائر منشوراتنا من العنوان الآتى:—

مكتبة جماعت اسلامى

P. O. ICHHRA, LAHORE, (Pakistan)

مطبوعه رين پريس، لاهور